قبر أنخوس آمن

عندما أشرفت بعثتنا من فوق ربوة تطل على سهول طيبة الجافة ، كان يتملكني إحساس قوي بأن هذا الركن المنعزل من صحراء ليبيا يخفي ما كنت ساعياً إلى كشفه منذ سنين عديدة — ألا وهو قبر الملكة (أنخوس آمن) قرينة الملك (توت عنخ آمن) .

وبعد عدة أشهر فتحنا مخدع الملكة المدفون في نفس ذلك اليوم المشئوم الذي غزا فيه هنفر بولندا ، فاضطررنا أن نسد اللحد بما يحويه من كنز ثمين ، وأرجأنا التنقيب في هذا القبر الكائن في وادي الملكات . والإرل (تانكارفيل) يمدنا بالمال اللازم خدمةً لتحفين اثنين .

وكانت حملتنا الأثرية مؤلفة مني ومن مسّاح ومصوّر وجيولوجي وطلاّب وخدم وأتباع ومن رفاق الخواص وهم حسن وأحمد ملاحظ العمال واثنين من الأعراب الخبيرين الذين قمت معهم باستكشاف في الصحراء الكبرى وحبيب الطبّاخ وكانت مؤونتنا تدعن من الأقصر في قارب ثم تنقل الينا بالسيارة

ولستكشفنا في أحد الأيام ما أثار دهشتنا حين بان لنا خاتم حجري قد نقش عليه اسم (أنخوس آمن) وذلك عند ما كنت وحسن ننقب في المقاوز الغربية من وادي الملكات . فكان دليلاً قاطعاً على وجود القبر غير المكتشف . عندئذٍ مسحنا المكان مسحاً دقيقاً وثبتناه بالخرط بما فيه من صخور مبعثرة وأخاديد وأجراف وكذلك مررنا على درج لم يظهر منه غير جزء لا يتجاوز المتر عقد على حافة صخرة عاتية . ثم اعتدرنا الى اثنين أنا واحمد وحسن وعلي خادمي الشخصي وحبيب الطاهي ودللنا الى مخيمنا فحملنا الحبال والفؤوس والمجارف والمناخل وغيرها من الأدوات وعدنا الى المكان فنزلنا عدة درجات أخرى بعد تعب شديد اكتشفنا على أثره ممرًّا منحدراً مليئاً بالأنقاض .

واستطعنا في اليوم الثاني أن نصل الى المدخل المقفل وان نحدث ثقباً في الجدار القديم

القائم بدون أن تخدش آثار الخاتم وأنا عند تسليط نور المصباح الكهربائي نحو تلك الفتحة ثقبًا ضيقًا آخر قد كدّست فيه الأنقاض أيضاً .

ولم ينقض يومان حتى تمكنّا من ان نحفر حفرة لمدى أربعين قدماً أدّت بنا الى باب ثانٍ موصد ومختوم، فقضينا الاختام جميعها وأدّيت قنديلاً خاصًّا لاختبار احتمال وجود غازات سامة ميتة . فاكتفيت أفعل ذلك حتى تراقص لهب القنديل بتأثير خروج الهواء الحار الذي كان محبوساً نيفاً وثلاثة آلاف وأربعمائة سنة .

فهتف حسن بانشراح مؤكداً أن هذا المكان لابدّ أن يكون المدفن الملكي الذي يضم كنوز الملوك .

وكانت مباغتة صفق لها قلبي فرحاً وسروراً عند ما شاهدت وأنا أسلط النور الى الغرفة الصخرية التي يبلغ طولها ٣٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً الكنز البرّاق، كنز عصر الملوك في مصر القديمة ، عند ذلك وسعنا الثغرة بالفؤوس بالمقدار الذي يسمح لنا أن نلج منه ورفاقي العرب خلال العمل يرتلون بعض الآيات القرآنية ويقرأون التعاويذ . ولقد كان الحرّ شديداً لا يطاق والرمل الخشن يخمش وجوهنا . وانى لموجه نور المصباح ، إذا بي أشاهد آثار طبعات أقدام حافية عليه هي من غير شك طبعات أقدام الذين دفنوا الملكة في ذلك العصر .

وأما سرير الملكة الذهبي وكراسيها وتماثيلها وزهرياتها الرخامية وصناديقها المرصعة فكانت تزهو بألوانها وتلمع ببلاطها المسجدي واللجيني . وبينما نحن ذاهلون من هذا المشهد الفريد ، إذا بنا نسمع صوتاً غريباً أهبه بالحفيف . فنزلنا ومعنا آلة التصوير ومصباح الرش لأني كنت على بينة مما سيحدث إذ علمتني تجربة فتح قبر الملكة (تن هيتان) ما ينبغي عليّ تداركه . ان الهواء الجديد الذي اندفع من الخارج كاد يبدل جو الغرفة الميّت ، حيث أخذت المحتويات الثمينة بالتفسخ والتغيرات الكيميائية بالتزايد وأنا أصوّر الغرفة وأرش أوعن الوداع بالمادة الكيميائية المثبتة خشية أن لا يتكرّر ما حدث عند فتح مخدع الملك (توت عنخ آمن) إذ استحالت أثمن محتوياته تراباً حيث لم يكن العلم قد توصل في ذلك الوقت الى الخطة لمثل هذه الطوارىء والحالات .

والمركّب الكيماوي الذي يتزوّد به كل عالم أثري يرهبه هي العاديات الواهنة فتنصاب في

الحال ولا بتغير ما فيها من ألوان وزخارف . وهذا ما فعلته في كل محتويات هذه الغرفة الخالدة قبل أن يعتريها الناف أو يصيبها التفسخ .

ولبثنا يومين كاملين وشهر بعد الأشرطة اللاصقة وكميات كبيرة من محلول (الكلوديون) والبرافين والقطن لحفظ التحف الناعمة وطلبت الى علي أن يذهب الى الاقصر ليجلب لنا فولاذيًا وأقفالاً محكمة لسد المدخل . وانقضت أيام كنا نسعى خلالها سعياً حثيثاً ومتواصلاً حتى تمكنا في آخرها من فتح الغرفة الثانية المطمورة .

وكان أول ما حيانا فيها ونحن نسلط الانوار الكشافة منظر يخلب الالباب ويأخذ بمجامع القلوب إذ شاهدنا ثلاثة أسرة مذهبة ناصبة وكراسي صغيرة مطعمة بالذهب الابريز وزهريات رخامية قد زينت جميعها بصورة الملكة الراحلة .

وقد عثرنا تحت الخدع على صناديق خاصة بالثياب وأخرى للحلي وكلها مرصعة بالأحجار الكريمة بشكل فني بديع . وقد صنعت من الذهب والفضة والعاج وضمنها أحقاق لأحمر الخدود والشفاه ومساحيق للوجه وملاقط للشعر ومقصات فضية وحاكين لتقليم الأظافر ودبابيس ذهبية للصفائر ومرايا عسجدية ومجموعة من الحلي النفيسة كالأساور والخواتم والأقراط والقلائد وغيرها مما لا يمكن تقدير ثمنه قد حفظت بكل الاتقان .

وأخرجنا ثلاثة تيجان متفاوتة الجمال من أحد صناديق الحلي الذي كان موضوعاً بجانب التمثال النصفي للملكة قد غطي ثلاثة منها بقبعتين تمثلان نسراً ناشراً جناحيه على جانبي الرأس وقبعة التاج الثالث بهيئة الثعبان المقدس (كوبرا) الذي كان يلبسها الملوك والملكات والرهبان فقط كشعار قدسي خاص بهم .

غير ان أثمن ما اكتشفناه من هذا كله صندوق في داخله ملف أسطواني من البابيروس مخطوط دوّن فيه تاريخ حياة الملكة والذي ساعدنا على ما كنا نجهله عن بعض نواحي حياة الملك (تورت عنخ آمن) حيث لم يعثر عند كشف لحده على مخطوط ثمائل يعرفنا قصة حياته .

واستطعنا كذلك أن نخرج العربة الملكية الذهبية وكانت الآثار الظاهرة على مجلاتها تدل على كثرة دورانها في شوارع مدينة طيبة الوعرة .

وأما ثياب الملكة (انخس آمن) فوجدناها بالشكل الذي وضعت به تفوح منها ومن

سائر ذخائر الزينة النسائية لذلك العصر روائع المسك والخزامى والياسمين . وانتهى بنا البحث الى اللحد المخفي تحت الدرج بستة عشر قدماً واستطعنا بعد لأي أن نخرم جوانب النوح الصواني الذي وضع — كما يظهر — قصداً أمام مدخل قبر اللحد . وتمكنا بهدى الأنوار الكشافة أن نرى التابوت الملكي بغطائه الصواني الكبير وقد نثرت من فرقه الأزهار الزاهية.

الا أن الدهشة التي اعترتنا — ويا للأسف — من هذا المنظر المفاجيء أذهلتنا فأنستنا أن نختبر احتمال وجود غاز سام في جوّ القبو وقد فطنا اليه بعد فوات الأوان فكان اللورد تانكارفيل أول من ترنح فوقع على القطط المحنطة الجميلة وأعقبه كل من حسن وحبيب الذي كان يحمل المصباح بيده غير اني استطعت أن أمسك المصباح في اللحظة الأخيرة قبل أن يسقط وأن أحمل اللورد (تانكارفيل) المجروح الى الممر الخارجي بمساعدة أحد الاتباع بالرغم من تغلب الدخان المتصاعد الذي كان يضايق أنفاسي وقد سقط المصباح وأنا أقوم بهذا العبء فصرنا في ظلام دامس ونحن نتسلل الى خارج الحفرة بمشقة .

وكان جرح (تانكارفيل) بليغاً في جهة عينه اليمنى وأصيب العمال برضوض من تهشم بالتاووس من هدة الرعب عافيهم على الجدار الذي كان يشق الطريق أمامنا ليبعدنا عن الجو المسموم .

ولم تكد تبزغ شمس اليوم الثاني حتى استطعنا أن نزيح غطاء التاووس فبان لنا صندوق المومياء المصنوع ولم يكن في الدنيا أجمل أو أدل على الحياة من هذا التمثال الذي ظهر بعد اختفائه آلافاً من السنين وقد كانت تقوشه المرشاة بالذهب فنّاً فائقاً بذاته . وثابرنا على العمل لفتح التابوت — فنجحناه وبدأنا نرفع الأربطة الكتانية بحذر شديد وهي معطرة بالمسك الزكي المصنوع بفن مجهول. فما أسفر عن وجه الملكة رشحنا الرأس الجميل بالمواد الكيميائية اللازمة حالاً وراعنا أن وجدنا أهداب الملكة وحاجبيها تنم عن الحياة وهي بالوضع الذي حنطت فيه وكانت قسمات وجهها ضاحكة .

ان الملكة (انخوس آمن) هي البنت الثالثة للفرعون (آمن حوتب) الرابع والملكة (نفرتيتي) ماتت وهي في الربيع السادس والثلاثين كما يرويه محضر البابيروس المكتشف في قبرها .

كان الوجه مقنعاً وملفوفاً باعتناء بشريط ملوّن ولا شيء أدل على مهارة أولئك الصناع وحذقهم من اظهارهم حتى ظلال الأهداب على الوجه وصنع الاقراط الذهبية بوضع نقط قطرات عطرية على الكتفين عند أية حركة .

وكان اللورد (تانكارفيل) يصوّر كل مرحلة من مراحل فك أربطة المومياء وشرعت أرفع رباط العنق المزين بالجواهر وقلمتها عند الكتف الايمن . وبينما أنا في عملي هذا لاح لي خاتم في أصبع الملكة فيه شعار العين المقدسة انحنيت لافحصه وأنا يتملكني العجب . وانى لكذلك وقد بهرتني أصابع الملكة الرقيقة إذا باليد اليمنى تتحرّك فتوقفت أنفاسنا من روع الحادث وهوله ويد الملكة الجميلة مستمرّة في الارتفاع فأخذنا نتقهقر نحو الباب كالمجانين فانقلبت قوائم آلة التصوير على المومياء وخدشت جانب التابوت الثمين .

وتعلل حركة يد الملكة بتبدل جوّ القبو . وذلك عند ما لامس الهواء الجديد جسم المومياء المحنّط منذ آلاف سنين فحركت العضلات والمفاصل المتشنجة تبعاً لهذا التغيير الطارىء وقد حدث مثل هذا لمومياء رمسيس الثاني عند الكشف عنها .

ولما تلاشت قوى اللورد (تانكارفيل) من جراء جرحه في اليوم الثاني من فتح مومياء الملكة نقل الى الأقصر ومنها الى القاهرة وعدت فطيت تابوت المومياء الخدش وأطبقت عليه غطاءه الصواني الذي يزن طنين والمخطوط بالهيروغليفية .

وأرجعنا محتويات اللحد الى مخبئها الأصلي وأحكمنا المنافذ بالاسمنت المسلح وختمنا المدخل السري ووارياه بالانقاض والتراب .

وقد مات كل من (اللورد تانكارفيل) واحد من تسعة جراحهما الذي صبته على ما أعتقد جرثومة سامة كانت موجودة في جوّ القبو المسموم ، ولو أن الناس هناك يعزون ذلك الموت الى انتقام الفراعنة كما سبق ان مات الإرل (كارنارفون) في حالة مماثلة عند فتحه مومياء الملك (توت عنخ آمن) وإذا ما عدنا الى وادي الملكات في المستقبل فسنتزوّد بمقاييس من السوائل والبلسلين لعلاج مثل هذه النسمات الطارئة . وأكبر ظني بعد ذلك ان العالم سوف لا يسمع بموت عالم أثري من جراء انتقام الفراعنة .

فخر الدين العسيري
المفتش في ديوان وزارة المعارف
العراق . بغداد